القسم الحادى عشر :

الاستعمار يواجه الاسلام فى الجزائر

قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير

(آل عمران)

ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين

(البقرة)

قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين .

(الأنعام)

تبين للعالم قوة الإسلام ، وعظمة الرسالة المحمدية ، فى هذه الآيات البينات ، التى دعت المسلمين إلى الصبر والمصابرة ، للوقوف أمام حوادث الدهر بشجاعة وثبات ، فلا تلين قناتهم ، وتذهب ريحهم وإنا لنبعث بها تحية لأخواننا المسلمين بالجزائر ، الذين وقفوا أمام فرنسا وجبروتها . ولئن كانت صفحات كفاحهم السياسى والحربى فى الجزائر ، معروفة أمرها وتداولتها الأيام ، فإن كفاحهم الدينى فى وطنهم وثباتهم معجزة من معجزات الله لأن فرنسا فى معاهدة ١٨٣٠ مع حاكم الجزائر تعهدت كما قلنا باحترام الدين الإسلامى وشعائره ، وأخذت على نفسها المواثيق ، لأن تترك للمسلمين أوقافهم وعوائدهم ثم عقدت عدة معاهدات . واتفاقات ، مع الأمير عبد القادر الجزائرى وغيره من الزعماء ، وفى نصوصها جميعا : العهود والمواثيق على غرار هذه المبادىء ، وهى حرية العقيدة وترك أمور الدين الإسلامى وشعائره بيد أهله .

ولكن هذه المعاهدات ، وما تحمله من إيمان ووعود ، وما أعقبها من تصريحات رسميه صادرة من الحكومة الفرنسية وممثليها ، ثم من الأمبراطور نابليون الثالث نفسه ، عند زيارته للأقطار الجزائرية كل هذا لم يمنع الاستعمار أن يبسط يده على كل شىء فى هذه البقعة العزيزة علينا ، وكان من جملة ذلك أن مدت فرنسا يدها إلى الدين

الإسلامى ،وإلى الأوقاف الإسلامية، تراث القرون الماضيه ومفخرة المسلمين،لأنها أوجدت ووقفت وبقيت طول الأزمان واحترمها ملوك المسلمين وأمرائهم لما يعلمون من أنها ارصدت للصرف على المؤسسات الإسلامية ، وهى هذه المدارس والمساجد الجامعة ، التى تحرص على تثقيف أبناء الأمة ، وتثبيت قواعد الدين ، وتلقين الناس تعاليم الشريعة الغراء .

فما الذى حدث فى الجزائر ؟

ذكر الدكتور انريكو انسباتو الإيطالى فى كتابه الإسلام وسياسة الحلفاء (ص ٧) ما يأتى بالنص :

ارتبطت الحكومات الأوربية فى بعض الجهات باحترام أملاك الأوقاف وما أرصد من الأملاك على الزوايا والطرق الصوفية ، وهذا شرط خطير يحسن بإيطاليا أن تفكر فيه طويلا ، قبل أن تأخذ به ، لما ينتج عن احترامه من نتائج وخيمة ، سبق لفرنسا أن تحملتها فى الجزائر ، لأنها حينما أعطت هذه المواثيق والعهود لم تكن لديها فكرة واضحة تماما ، عن أهمية أوقاف المسلمين، وأثرها فى ابقاء قوتهم الدينية ، فكان من نتيجة هذه السياسة المرتجلة أن ارتكبت فرنسا سلسلة من الأخطاء للخروج من هذه السياسة ، التى فرضتها على ارادتها ، فاضطرت أن تناقض ما أخذت به نفسها ، وتعهدت للمسلمين باحترامه .

(١) ولما هاجم المستعمرون نظام الاقاف فى شمال إفريقية عامة ، قالوا : إنه نظام رجعى ، يمنع تداول الثروات ، والقصد من ذلك حرمان المسلمين من أملاكهم ، ونسبوا إليه أنه نوع من استغلال عمل الإنسان لأنه يفرض الجبر وذلك حينما رأوا الطلبة والمريدين يتلقون العلم فى الزوايا والمدارس الإسلامية ، ويعملون فى زراعة الاراضى الملحقة بالمعاهد ، وكانوا يطلقون على هذا العمل التعاونى الإنسانى : إسم المعونة . ولما ازدهرت أملاك الاوقاف وزاد خيرها استكثروا هذا الخير عليها : وحاربوها باسم الحرية والعدالة والمساواة ، وهم يعلمون أنهم يقصدون أولا وآخرا هدم قواعد الدين وأفقار أهله وهذا ماوصلوا إليه، حينما شردوا الطلبة ، ونزعوا أملاك الاوقاف

ولم تكن هذه الاوقاف مرصدة للعلم وحده ، وإنما كانت لوجه الله للسائل والمحروم ، وفى هذه الناحية بالذات يقول صاحب كتاب « التشريع الإسلامى الجزائرى صفحة ١٨٠ ما يأتى »

إن خمسة أعشار الاراضى الزراعية فى الجزائر كانت أوقافا ، وأن فرنسا حينما صادرت هذه الاملاك بسطت يدها على الدين الإسلامى ، وجعلت آلافا من الاهالى الذين كانوا يعيشون فى تلك الاراضى جماعات ، تتجول لطلب العيش ، فأصبحت تسمى بفيالق الفقراء .

(١) يلاحظ القارىء أن الذين يهاجمون الأوقاف بمصر يستعملون منطق الدول الاستعمارية .

والحكومة الفرنسية تمثل فكرة لادينية[١]، ومعنى هذه السياسة فى العرف الذى نادت به فرنسا هو الكنيسة الحرة ، تتعاون مع الدولة الحرة .

وتفسير ذلك أن تمتنع الحكومة عن فرض إرادتها على أنظمة الكنيسة ، وقرارات رجال الدين ، فيبقى الفاتيكان يقوم برسالته الدينية والسياسية بحرية أوسع مما كان فى السابق .

ولما انتقدت سياسة فصل الدين عن الدولة صرح احد اعضاء مجلس الشيوخ « إن هذا الفصل طلاق ولكنه يلزم الطرفين بالعيش تحت سقف واحد مع تعاون وتفاهم أوفق مما عهداه قبل صدور حكم الطلاق . »

وقال أيضا « أن الكاثوليك سيكونون أكثر كاثوليكية تحت هذا القانون ، لانه يؤكد سلطة البابا ، ويحترم ممثليه ويترك لهم الحرية دون أن يقفوا للدفاع عن أعمالهم أمام ممثلى الجمهورية . »

وليس هناك أصرح من هذه الأقوال لترك شئون الله لله ، وشئون قيصر لقيصر ، فما الذى هيأته حكومة الجمهورية التى فصلت الدين عن السياسة لرعاياها المسلمين ، الذين اعترفت لهم بحقوقهم الدينية كاملة ؟ .

---

(١) لا يك Laique

يقول صاحب كتاب « بحث التشريع الجزائرى صفحة ٦٣٢ لارشير .

إن الأوقاف الإسلامية التى تتولاها الدولة يصرف دخلها على ناحيتين :

الدين الكاثوليكى ٧٩٠٫٠٠٠ فرنكا

الدين الإسلامى ٣٣٧٫٠٠٠ فرنكا

والاعتراض الاساسى هو كيف تتولى دولة ينص دستورها على فصل تام بين شئون الدين والدنيا أملاك دين ، لم يكن لة بها صلة فى يوم من الأيام ، فعلى أية قاعدة بنيت هذه السياسة ؟

والإعتراض الثانى : هو إذا فرض أن رأت هذه الدولة أن تتبرع من أموالها بهذه المبالغ ، وهى دولة لادينية فالمعروف أن أتباع الديانة الكاثوليكية لا يصلون إلى عشر السكان المسلمين ، ولكنهم يتمتعون بما يزيد على ضعف المبالغ المخصصة للشئون الدينية لمن هم أكثر من عشرة أضعافهم ، فأى قاعدة إنصاف أخذت بها ؟ .

ويهون الأمر لو كان هذا تبرعا ، ولكن لأن يؤخذ هذا من أملاك وأموال وأوقاف المسلمين وهى مرصدة ومحبوسة على هذه الناحية

منذ قرون طويلة الأمد ، ولم يتعرض لها أحد من الدول ، التى تعاقبت على حكم الجزائر ، وهذه ثالثة الإعتداءات ، التى لا يبررها منطق للآن ، ويفسر لنا كيف ضعفت الحياة الدينية فى الجزائر وفى ذلك يروى لنا (البير ديفوكلى A . Devaucli فى كتابة المؤسسات الدينية فى العاصمة الجزائرية أن مدينة الجزائر كانت تحوى ١٨٦ مسجداً فى سنة ١٨٣٠ ولا يوجد فى القطر الجزائرى بأكمله غير ١٦٦ مسجداً جامعاً كما ذكر ذلك صاحب (بحث التشريع الجزائرى) ولا نشك فى أن هذا العدد سيهبط إذا دام حكم فرنسا جيلا آخر .

ولبيان هذه السياسة التعسفية إزاء المسلمين وشريعتهم ودينهم يحسن أن نشرح هذه الفكرة ، من مراجع الاستعمار الفرنسى نفسه .

فقد جاء فى كتاب جورج هاردى G , Hardy « نظرياتنا الإستعمارية الكبرى » إنه فى المناطق التى لم يسدها الإسلام قط أى فى أفريقية السوداء ، يجب أن تحاط الأديان والمذاهب الأفريقية بما يكفل حمايتها وبقاءها وفى مناطق البربر يجب منع تعليم اللغة العربية منعا باتا ، وعدم تشجيع نشر المكاتب القرآنية ، ومنع نصب القضاة الأسلاميين والحيلولة دون تنفيذ شريعة الإسلام »

« أما فى الجهات التى ثبتت قواعده فى ربوعها فلا مانع من تركه[1] يعيش ، ولكن فلنحترس من الاهتمام بأمره ، وإظهار الإعجاب به .

---

(١) تنفذ بعض الدول الاسلامية المستقلة هذه السياسة فى أراضيها .

فهذه أصول السياسة الاسلامية الفرنسية، وهى تحول دون إنتشاره فى أفريقية ،وتعتبر القبائل من أهل الجزائر ومراكش غير مسلمين ، وتحاول أن تحد من أثر الإسلام فى المناطق الاسلامية الصميمة .

فلننظر إلى بدء هذه السياسة ، وما تركته فى نفس الشيخ محمد بيرم التونسى ، صاحب كتاب صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار ، الذى طبعه سنة ١٣٠٢ هجرية ، عن زيارته الجزائر ، فى رحلته عام ١٢٩٥ هجرية ، وقد مضى على ذلك سبعون عاماً تقريبا إذ قال :

أن الدولة الفرنسية هى القائمة بمصاريف إقامة الجوامع وما فيها من قراءة الأحزاب أو كتب الحديث ، لأنها استولت على جميع الأوقاف ، واقتصرت فى كل بلد على عدد مخصوص من المساجد ، تقوم به وغيره ، تصرفت فيه بما يناسبها ، وحرمت المستحقين من مالهم كأوقاف الحرمين .

وذكر كيف أقدمت الهيئات التبشيرية عند وقوع المجاعة الكبرى فى الجزائر على تنصير عدد من الأولاد الأعراب وغيرهم من المسلمين بنات وأطفالا ، وإن بعضاً منهم لما كبروا وعلموا بأن أهلهم مسلمون فروا إلى أهليهم .

وأشار إلى بقية من علوم السلف كانت تدرس فى قسنطينة وتلمسان والجهات الجنوبية ، ولكن القلق كان شاملا أفاضل العلماء فقد تقابل مع الشيخ على الخفاف المفتى المالكى بقاعدة الجزائر وهو من تلامذة علامة القطر الافريقى الشيخ إبراهيم الرياضى ، وله فضائل كاملة ، وتقوى ، وسكينة ، واطلاع فى الفقه والحديث . ولما أنس بمؤلف الكتاب فاتحه فى أمر الهجرة إلى بلاد الاسلام فأخبره أن مثله نادر الوجود ، وإن بقاءه فيه لتعليم الناس دينهم أنفع له ، وأكثر ثوابا عند الله من خروجه بنفسه ، وترك تلك الأمة المسلمة خالية من مثله ، بل ربما كانت هجرته سبباً فى خروج غيره فتحرم عامة المسلمين ممن يلقنهم تعاليم الاسلام ، وعقائد الفقه . وقد ورد فى كتب الشريعة أنه إذا تعذر على ولى الأمر فداء الأسارى من يدى العدو فليؤخر بينهم العلماء .

* * *

فهذه حالة الجزائر من ناحية من أهم النواحى التى تهمنا ، ناحية العقيدة الأسلامية ، وفيها عبرة وتذكرة ، لمن يريد أن يفهم حقائق الإسلام فى قطر من أعز الأقطار الإسلامية ، وأقربها إلينا . وأبعدها أثرا فى تاريخ أفريقية العربية ، التى لن تموت ، وفيها دعائم الإسلام القائمة .

وإننا لنعدها معجزة إن بقيت هذه الدعائم فى أفئدة ملايين من الناس بعد سنوات الضغط السياسى ، والمحاربة التعسفية ، التى أشرنا إليها ، ولكن الذى نخشاه هو أثر سياسة الافقار ، التى فرضتها فرنسا على رعاياها المسلمين ، فهذه أبعد غوراً من أى أساليب الإرهاق التى رآها العالم ، وهى التى ورد وصفها فى محكم الآيات الواردة بالقرآن ، بقوله تعالى (ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس) فقد أصيب المسلمون فى نكبتهم بالاستعمار الفرنسى بهذه النوائب: قلة الغذاء ، وكثرة المرض ، وسكنى المنازل التى لا تليق بالإنسان ، ثم دهمتهم فى السنوات الأخيرة نكبات القحط المتتالية ، وتفشت فيهم الأمراض القاتلة .

فهناك تفعل قلة الغذاء ، أو عدم تنظيمه ماتفعله فى كافة بلدان الدنيا ، التى أصيبت بحكم الأوروبيين ، حتى أصبح الكلام هنا إعادة لما سبق ذكره ، وتأثير هذا كبير فى تكاثر السكان وتناسلهم ، وفى إخراج جيل من الأجناس البشرية ضعيف لا يقوى على البقاء أو الصمود أمام تفوق الأجناس الأوروبية من الناحيتين العقلية والبدنية .

ويسكن لدينا عدد من السكان فى أكواخ من صفائح الغاز الفارغة ولكن فى الجزائر يعيش أكثر من نصف مليون مسلم ، فى أحياء برمتها ؛ أو فى مدن قامت على هذا النوع من المساكن ، ولهذا لا نعجب

أن نسمع أن أكثر من ٤٠٠ر٠٠٠ جزائرى مصابون بالسل ، وهو يعادل عدد المصابين به فى فرنسا ، وعدد سكانها يقرب من أربعين مليونا ، ولما كانت الوقاية الصحية غير متوفرة لدى الأهالى وليس لديهم أية خدمات لحمايتهم ، فقد انتشرت الأمراض الزهرية انتشارا اجتاح قرى برمتها .

إن أعظم صورة تقدمها فرنسا بعد حكم دام أكثر من قرن من الزمن هو مواكب النساء والرجال والأطفال ، الذين لا يجدون من الكساء إلا مايسترهم يسيرون نحو بقايا الأطعمة ومزابلها يلتقطونها لسد رمقهم . بعد أن حرمتهم حكومة الاستعمار من زعمائهم ، وقادتهم ، ومدارسهم ، وأوقافهم ، وفرضت عليهم الذلة والمسكنة ، وحرمتهم من كل ميزات شخصية الدين واللغة والتوجيه . لقد بقى لهم شىء واحد هو الإسلام والإيمان بالله .

(قل أن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين) .

قد يرى البعض أن الامة التى كانت ترج البحر الابيض المتوسط قبل احتلال فرنسا قد رقدت رقدتها النهائية واصبحت فى ذمة التاريخ بعد أن ادّت رسالتها ولكنه مخطىء فى ظنه . فالأمة الجزائرية ستحطم هذه الاغلال ، وستخرج من هذه الظلمات بقوة تبهر فرنسا والكولون الفرنسى ، لأن النيران المتأججة لايزال بريقها

واشعاعها تخفيه تحت الرماد. امة إذا تحركت وثارت ستهز هذا الركن هزة عنيفة ، لا تقدر على الوقوف إزاءها قوات الظلم والتعسف .

« اننا لا ننتظر الرحمة من أشد الناس عداوة لنا » .

« كما لا نرضى بالعطف يغمرنا به أحب الناس الينا » .

« دعونى أصارحكم بالحق : والحق اقول » .

« أى أخوانى فى الحروب والمعامع والمعارك » .

« انى احبكم من اعماق القلب » .

« إنى اعاهدكم كواحد فيكم » .

« اننى كما كنت فى الماضى سأبقى اليوم وغدا واحداً منكم » .

بهذا النشيد الذى كتبه الفيلسوف الالمانى اختتم هذه الكلمة وهو ينم عن شعورى تماماً : وأعتقد أن المسلمين فى كفاحهم سواء فى شمال إفريقيا أو فى أنحاء الروسيا ، أو فى مقاطعات الهند ، لن يقابلهم خصومهم بالرحمة : سيفرض علينا القتال وهو عراك حتى الموت .

فأما النصر أو الابادة ولا وسط بينهما .

إن الحياة هى التفاؤل ، ونحن ندعو إلى انتزاع النصر فى السلم والحرب ولا يكون هذا إلا بنقل الجماعات الإسلامية إلى حياة القرن الذى نعيش فيه وتحاشى الوقوع فى الأخطاء التى وقعنا فيها قبل اليوم

مراجع الكتاب

كتب عربية

١ — فى بلاد الناس أو رحلة الشتاء والصيف .
بلاد الجزائر القطر التونسى طرابلس الغرب
المطبعة العثمانية . بيروت
تأليف عبد المجيد كامل الضابط بالجيش المصرى سابقاً

٢ — تحفة الزائر فى مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر
المطبعة التجارية . الأسكندرية ١٩٠٣

٣ — صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار
١٣٠٢ هجرية
تأليف محمد بيرم التونسى

كتب فرنسية

1 — Histoire de l 'Armée Francaise — Généneral Weygau
2 — » Militaire de Mohamed Aly et ses Fils — Parle
3 — Campagnes Modernes — » Général Decoins

4 — Nos Grands, Problèmes Coloniaux — » Georges Hardy
5 — Réalités Coloniales Mercure de France
6 — Pour l' Empire Colonial Français — » Cabriel Hanotaux
7 — La Révolte Arabe — » Eugéne Jung
8 — L'Avenir Economique de nos Colonies — » » »
9 — Voix de l' Orient — » Jacque d ' Aumale

10 — L 'Islam et la Politique des Alliés — » Enrico Insabato
11 — Les Siécles Obscurs du Maghreb — » E. F. Gautier
12 — Précis de Geographie Economique — » J. F. Horrabim
13 — L. Emir Abd El Kader — » Colonel Paun Aza
14 — Allah est Grand — » Mohammed Essad B
15 — Le Socialisme Constructif — » Henri de Man

16—L' Allemagne en Afrique et La Guerre

Par

le Baron Hulot Libraiie Telix Alcan 1918

17—La Politique Orieutale de la Russie 1918

18—Discours et Messages Général de Gaulle

19—Le Livre Jaune Français

Ministére des Affairees Etrangeres

20—. Les Intrigues Ang laises Contre L 'Islam

Mohammed Farid Bey

Librairie Nouvelle de Lauxanne 1917

مؤلفات فرنسية من مجموعة:

Les Dolèances des Peuples Opprimês ;

33—En Algerie

Les Corruptions de la Religion et des Moeurs Indigenes

Par un Musulman Algerien

34—La Tunisie et l Algerie

Par Cheikh Ismail Sefaihi Ancien Cadi de Tunis

et

Chiekh Saleh Cheiif Ancien Professerr a L'université

Zeitouna de Tunis

35—L Islam dans l ' Armée Francais

Lieutenant Indigén Bou kabouya Hadj Adallah

des Tirailleurs Algeriens

Librairie Nouvelle de Aouzanne 1917

كتب انجليزية

21—History of The Great War
Military Operations :

22 — War Speeches — Winston Churchill

23 — The Rising Tide of Color — Lothrop Stoddard

24 — The New World of Islam — » »

25 — The Revolt Against Civilisation — » »

26 — The Menace of the Under Man — » »

27— One World — WendellL Willkie

28 — A study in German Ideals
General ron Bissings Testament

29— Germany's Annexationist-Aims by S. Grumbach

مؤلفات طبعتها ونشرتها

The Christian Literature Society for India.

30— . The Ottoman Turks
The Rev. Canon sell

31— The Mamluks in Egypt „

32— Muslims in China „

تنبيه

وقعت بعض أخطاء مطبعية وزيادات فى النص
يمكن للقارىء الكريم تداركها وقت قراءته .